

تاريخ الاستلام: 2022/09/12 تاريخ القبول: 2023/01/25 تاريخ النشر: 2023/06/18

يعقوب قادة^{*1}

جامعة آكلي محمد أولحاج - البويرة (الجزائر)

Email : Kader.yakoub@gmail.com

الملخص:

يدرس هذا المقال الدراسات الثقافية، والنقد الثقافي في كتاب (تاريخ الجزائر الثقافي)، ويتركز في درسه على أنساق الثقافة الجزائرية، موضحاً دورها في المقاومة للحفاظ على الشخصية الوطنية. ويهدف البحث إلى إيضاح الروابط بين الدراسات الثقافية والنقد الثقافي في التراث الجزائري الذي اتخذته (أبو القاسم سعد الله) مادة لبحثه، بتحديد مكونات الثقافة الجزائرية عبر التاريخ، ومظاهرها الاجتماعية، والسياسية، والفنية، واستمرار وجودها رغم اختلاف ملابسات الحياة. ويسعى البحث أيضاً إلى تحديد علاقات التفاعل بين الثقافي والفني والأدبي من جهة، والتاريخي والاجتماعي والسياسي من جهة أخرى.

ولعل أهم النتائج التي توصل إليها البحث أن الدراسات الثقافية التي أجراها المستشرقون على المجتمع الجزائري في فترات تاريخية متعددة استفاد منها (أبو القاسم سعد الله) مناقشا ما ورد فيها، ومصححا المغالطات التي تضمنتها. ومن النتائج الهامة أيضاً ما يعود إلى طبيعة التأليف التي انتجها (أبو القاسم سعد الله) حيث اعتمد مفهوم الثقافة التي تضم كل التراث الجزائري المادي وغير المادي، واعتماده أيضاً على الوثيقة التاريخية في التأسيس للمادة العلمية.

الكلمات المفتاحية: دراسات ثقافية، النقد الثقافي، النقد الأدبي، تاريخ الجزائر الثقافي.

Abstract:

This paper deals with cultural studies and cultural criticism in "The cultural History of Algeria" book. It focuses on the Algerian cultural patterns and the role they had played during the popular resistance as to preserve the national personality. On the other hand, it aims at showing the links between cultural studies and cultural criticism within the Algerian heritage which Abu Al-Kacem Saadallah had chosen as a subject matter to identify the components of the Algerian culture through history and its social, political and artistic manifestations as well its permanent existence despite the different circumstances of life. This paper also aims to identify the relationship of interaction among cultural, artistic and literary aspects on one hand among historical, social and political aspects on the other one. Perhaps, one of the most important conclusions in this paper is that Abu Al-

Kacem Saadallah had taken advantage of the cultural studies carried by orientalis on the Algerian society through various historical eras : he discussed their ideas and corrected their mistakes. Some conclusions are related to Abu Al-Kacem Saadallah's nature of writing, he has based his research on the concept of culture which includes material and immaterial Algerian heritage and used historical documents to constitute a scientific material

Keywords: cultural studies- cultural criticism- Literary criticism history

1. المقدمة

ذكر (أبو القاسم سعد الله) في مقدمة كتابه (تاريخ الجزائر الثقافي) بأن هدفه هو: «إنتاج عمل يكشف عن مساهمة الجزائر في الثقافة العربية الإسلامية والإنسانية عبر العصور»؛ ونفهم من هذا القول أنه صرح بالغاية التي ينشدها من تأليف كتابه. والسؤال الذي يمكن أن نطرحه: ما هو الثقافي الذي يعنيه (سعد الله)؟ وما هي مكوناته؟ وما النقد الثقافي الذي ضمنه كتابه؟ وما هي الأنساق الثقافية التي حللها؟

ولكي نجيب عن الأسئلة ركّز بحثنا على استجلاء مصطلح (الثقافة) مقارنة بالمصطلحات الأخرى، سواء التي تدخل في مكونات الثقافة، كاللغة العربية والأدب العربي، والتراث الجزائري وغيرها، أو التي تتقاطع معها، كالنقد الأدبي، والنقد الفني، والنقد الفلسفي، والنقد الجمالي من المجالات التي تتشارك مع الثقافي عند (أبو القاسم سعد الله) بأشكال مختلفة. كما يهدف البحث إلى بيان دور (الثقافي) في أبعاد نخبة الأمة العلمية، والأدبية، وفي هذا دعوة إلى استخدام الرؤية التاريخية في معالجة قضايا الثقافة الجزائرية بالاستناد إلى الدراسات الثقافية الحديثة التي تحلل الأنساق الثقافية من منظور تاريخي تطوري.

وانتهجنا منهجا استقرائيا يسمح كلّ مادة الكتاب الذي يعدّ موسوعة للثقافة الجزائرية تناولت معظم الأشكال الثقافية في مدة تربو على أربعة قرون من الزمن، وقد حاولنا جمع أكبر قدر من المعطيات وفق خطة المقال المستوحاة من الموضوع، ويثمر المنهج الاستقرائي عندما يشفع بالمقارنات المختلفة بين المعطيات المتشابهة المستخلصة.

وما دامت الثقافة هي محور هذا البحث لأنها تمثل القاسم المشترك بين الدراسات الثقافية والنقد الثقافي؛ فإننا سنبحث في العوامل التاريخية من حيث تأثيرها في مفهومها، ومدى إدراك (أبو القاسم سعد الله) لوظيفتها لمقاربة تاريخ الجزائر الثقافي، ولمّا كانت خطة الكتاب مبنية على مفهوم التاريخ العام بمكوناته السياسية والعسكرية والاقتصادية، فإننا ناقشنا التاريخ الثقافي في ضوء التاريخ العام الجزائري، وهو ما يؤسس بشكل عام للمقارنة بين النقد الثقافي والدراسات الثقافية.

2. أثر العوامل التاريخية في تحديد الثقافة

نسجل في موسوعة (تاريخ الجزائر الثقافي) نقدا ثقافيا يتناول قضايا الأدب، و مشكلات النقد، وأشكال الفن الأخرى، كالرسم والعمارة والنحت والموسيقى والمسرح والفن السابع، في الحقب التاريخية المختلفة، فكل حقبة تميزها مكونات ثقافية معينة. وسنجد الكاتب ينقدها نقدا ثقافيا من منظور تاريخي تطوري، ما يدفعنا إلى محاولة الإحاطة بمفهوم النقد الثقافي عند (أبو القاسم سعد الله)، والإجراءات التي ابتدعها في تحليل الظواهر الفنية، والثقافية؛ وهو بذلك يجمع بين الثقافة والتاريخ والمجتمع، باعتبارها أنظمة تتبادل التأثير. (الرويلي، م. والبايعي، س. (2002). ص140)

هناك عاملان أساسيان لهما الأثر الكبير في رؤية المؤرخ (أبو القاسم سعد الله) للثقافة الجزائرية في فترة امتدت أكثر من أربعة قرون ونصف، يمكن أن نلخصهما في ما يأتي: العامل الأول يتمثل في الفترة التي أُلّف فيها الكاتب مؤلفه، وهي فترة استقلال الجزائر، التي تمثل محاولة إلى الرجوع إلى الذات، وتقييم المشاريع التي تسهم في بناء المجتمع الذي تعوّض لكثير من التشويه في حقبة الاستعمار. (سعد الله، أ. 2007. ج 01، ص 95). والعامل الثاني هو الحقب التاريخية التي وصفها بحته، وهي فترة طويلة يحاول المؤرخ أن يجمع مكونات الهوية الوطنية بالرجوع إلى الماضي، هذان العاملان لهما أثرهما البالغ في اعتماد المؤرخ على مبادئ (الدراسات الثقافية) وأسس (النقد الثقافي)، في قراءته للوثائق، وكان يمكنه أن يكتفي بقراءة الوثائق قراءة المؤرخ الذي يصف الأحداث، ويربط بينها موضحا الأسباب، وعوامل التأثير؛ لكنه اختار هذا المنهج في القراءة تحت تأثير الثقافة الجزائرية في راهنها؛ وهذا تأسيسا على تصوّر الدراسات الحديثة التي ترى أنّ البعد الثقافي في تطوّر المجتمعات له دوره الحاسم إلى جانب البعد السياسي والاقتصادي؛ (أمين، س. (1989)، ص 05-07)، فلهذا نجد أنه يذكر في مقدمة الجزء الأول أنّّه درس النواحي النظرية للتاريخ الثقافي من تيارات ومؤثرات وظواهر ومناهج، كما تناول فيه المؤسسات ورجال التصوف والعلماء وعلاقتهم بالسلطة والشعب. (سعد الله، أ. (2007). ج 01، ص 22).

واستنادا على رؤيته التاريخية للأحداث، واستيعابه للأسباب والنتائج سعى إلى دفع ما لحق بالهوية الجزائرية من ضرر، وذلك عن طريق توضيح مقومات الثقافة الجزائرية عبر العصور، وقدرتها على خلق قدرات استماتة الجزائريين من أجل المحافظة على تميّزهم بشتّى الأشكال. لذلك أثبت في غير موطن من كتابه قضية أنّ الثقافة الجزائرية جزء من الثقافة العربية الإسلامية رغم تميّزها بمكوناتها، وهذا يملّ البعد التاريخي للثقافة الجزائرية، وهو بعد جغرافي في الوقت نفسه، حيث يُعدّ رداً على طروحات الاستعمار الذي يدّعي فيها أنّ الثقافة الجزائر منفصلة عن الثقافة العربية الإسلامية، خاصّة في جانبها اللغوي وما ينتج عنه من أدب؛ وبهذا يضع اللّغة في علاقتها بالثقافة ليؤكد أنّ الدراسات الثقافية التي تحلّل الأدب باعتباره عنصراً من عناصر ثقافة المجتمع كفيلة بحلّ هذه الدسائس التي زرعها المستعمر وأعوّاه من المستشرقين؛ (ويدن، ك. (2005) ج 09، ص 253)، فثقافة المجتمع الجزائري بكلّ مكوناتها قادرة على التعبير عن الهوية الجزائرية.

وللنقد الثقافي عند (أبو القاسم سعد) ارتباط وثيق بنظام الحكم؛ خاصّة في العهد العثماني فهو يقول: «وتظهر سلبية الوجود العثماني في الجزائر في الميدان الثقافي على الخصوص. فالعثمانيون قد دافعوا في البداية عن الدين الإسلامي، وشجعوا تيار التصوف في البلاد، وأوقفوا بعض الأوقاف على المؤسسات الدينية، وساهموا في بناء الزوايا والمساجد والكتاتيب، فكأنّ نظرهم إلى الدين في داخل البلاد كانت نظرة تعبدية محضة. وهي نظرة لم تستفد منها الثقافة على كل حال. فهم لم يؤسسوا جامعة كالقرويين أو الأزهر أو الزيتونة، تبث العلم، وتخرج العلماء والكتاب، وتحفظ اللغة، وتربي العقل.» (سعد الله، أ. 2007. ج 01، ص 18)

لقد أرجع غياب المؤسسات العلمية في الجزائر إبان الحكم العثماني إلى طبيعة نظام الحكم الذي دان له الجزائريون، هذا النظام الذي يختلف عنهم لغة وأدبا وثقافة، وبالتالي لا يمكنه أن ينتج أمة جزائرية مثقفة قادرة على التدافع، والإسهام في الحضارة، ولو أنّ فكرة نظام الحكم الذي يجب أن يكون نابعا من الشعب هي فكرة الدولة الوطنية الحديثة، على عكس الخلافة التي تؤسس لحكم شامل لكلّ الثقافات، ومن هذا نستنتج ما يهدف إليه الكاتب من وراء إثارة فكرة علاقة

الثقافة بنظام الحكم السائد، فلعل أهم خصائص هذه العلاقة هو التكامل، فكلما كان النظام خادما للثقافة خلق في المجتمع أسباب الحياة والقوة. وإذا بحثنا في مظان علاقة الحكم بالثقافة علمنا المقاصد التي يريد (أبو القاسم سعد الله) تحقيقها، فأهمها على الإطلاق وحدة الأمة تكون بوحدة الثقافة، وتحافظ الأمة الجزائرية على هويتها بالمحافظة على ثقافتها، باختلاف مكوناتها وتنوعها.

ومما لا شك فيه أن (أبو القاسم سعد الله) كان ملما بمفهوم (الثقافة)، مدركا لدوره في الكتابة التاريخية التي تبرز خصائص المكونات الثقافية للأمة، لأن « الشعوب التي ليس لها ثقافة ليس لها وجود، ولا يهم بعد ذلك أن يقال عنا أننا كنا سياسيا مستقلين أو مستعمرين ما دام وجودنا الثقافي ثابتا لا يتزعزع »، (سعد الله، أ. 2007. ج. 01، ص 25) وهذا ما يعزز ارتباط المفهوم التاريخي للثقافة عنده بمفهومها في الوقت الحاضر، ونشير إلى أن هذا التعريف متوفر في الدراسات الثقافية، فقد عرفت الثقافة بأنها عملية التطور الفكري، والروحي، والجمالي في المجتمعات، تسهم فيها النظريات الفلسفية والجمالية والأدبية، ويقاس هذا الاسهام بمدى استجابة المجتمع لكل هذه المفاهيم، وتعرف الثقافة أيضا بأنها طريقة عيش في مجتمع معين (Storey, j. 2018.p01,02). وتختلف تحديدات الثقافة باختلاف المناظير التي تعرف من خلالها، فمن منظور سيميائي تعرف بأنها علاقات متشابكة للمعرفية نسجها البشر. (PAYNE, M. 2010.p168)

وتُحدد الثقافة كذلك بالفنون الداخلة في تكوينها؛ فهي تعيل في معناها الشائع الذي تم تطويره فقط منذ آخر القرن التاسع عشر، إجمالا على الفنون (موسيقى، أدب، رسم... إلخ) و/أو مع تمييز قيمي بين عال ومنخفض (...). لقد تمّ تحديد ثقافة بشكل مفيد وواسع أكثر لتشمل الممارسات الفنية والعلمية والأخلاقية والدينية والاقتصادية والسياسية، والمؤسسات والمعايير والمعتقدات التي تميز مكانا وزمانا خاصين» (وايلز، ك. 2014. ص 177).

ولعل أهم دليل نسوقه على إحاطة (أبو القاسم سعد الله) بأهمية البعد الثقافي للهوية الوطنية هو في اختيار عنوان الكتاب: (تاريخ الجزائر الثقافي). ألما (النقد الثقافي) فهو المفهوم الذي

نصبو إلى إثباته في رؤية (أبو القاسم سعد الله) لتاريخ الجزائر الثقافي باعتباره مقياسا نقديا تقاس في ضوئه الظواهر الثقافية، المادية وغير المادية في التراث الجزائري. ولعل قضايا الهوية الجزائرية، والأدب الجزائري، واللغة العربية، من الموضوعات التي أعمل فيها (أبو القاسم سعد الله) إجراءات النقد الثقافي من أجل استخلاص رؤية تستوعب البعد الثقافي لهذه القضايا فالنقد الثقافي يطبق المفاهيم والنظريات المتنوعة على الفنون الراقية والثقافة الشعبية، والحياة اليومية. (علي، ح. 2007، ص20).

إنّ الفترة التي ألّف فيها الكاتب مؤلفه، والحقب التاريخية التي استوعبها بحثه، لها أثرها في اعتماد (النقد الثقافي)، الذي مارسه كمؤرخ يقرأ الوثائق، ومن خلال رؤيته للأحداث، واستيعابه للأسباب والنتائج سعى إلى دفع ما لحق بالهوية الجزائرية من ضرر، وتشويه، ويوضح مقومات الثقافة الجزائرية عبر العصور، وقدرتها على استماتة الجزائريين لكي يحافظوا على تميّزهم بشقّ الأشكال. لذلك أكّد (أبو القاسم سعد الله) على قضية أنّ الثقافة الجزائرية جزء من الثقافة العربية الإسلامية رغم تميّزها بمكوناتها. فمن (النقد الثقافي) الذي يستنتج أبو القاسم سعد الله عندما يراجع الحقب التاريخية غياب المؤسسات القادرة على تعليم المجتمع وتربيته، وتأسيس عوامل النهضة الأدبية والعلمية، رغم توفر المجتمع الجزائري على الطاقات التي يمكنها الاضطلاع بهذه المهمة، فالحكّام العثمانيون: «لم يؤسسوا جامعة كالقرويين أو الأزهر أو الزيتونة تبث العلم وتخرج العلماء والكتاب وتحفظ اللغة وتربي العقل. ثم إنهم لم يكونوا يتكلمون لغة البلاد ولا يتذوقون أدبها ولا يقرأون كتبها ولا يتصلون بعلمائها اتصالا عاطفيا وعقليا كما فعل مثلاً سلاطين المغرب أو حتى بابايات تونس بعد تأسيس العائلة الحسينية.» (سعد الله، أ. 2007، ج 01، ص18)

هذه المقارنة التي تخصّ غياب الجامعات كالقرويين والأزهر والزيتونة عند الجزائريين، يفسّرها (أبو القاسم سعد الله) بالاحتكام إلى نظام الحكم الذي خضع له الجزائريون، هذا النظام المختلف عنهم لغة وأدبا وثقافة، لا يمكنه أن ينتج أمة قادرة على التدافع، والإسهام في الحضارة. ثمّ إنّ حضور هذه المؤسسات كفيّل بناء الإنسان الذي لا يقبل الاستعمار؛ فهل هذه إشارة ضمنية إلى ميراث الحكم التركي الذي هيّأ المجتمع الجزائري ليقبل بالاستعمار الغربي؟ إنّه نقد ثقافي صادر عن

مؤرخ، ينظر في أبعاد الأحداث؛ لأنه يرى أنّ الامكانيات توفرت في المجتمع الجزائري لبناء مؤسسات علمية، تحفظ له ثقافته، وتدعم قدراته العلمية والأدبية، لكن الحكم التركي لم تكن له مثل هذه الاستراتيجية حيث اكتفى ببناء المساجد والزوايا والكتاتيب، ودعم التصوّف والفرق الدينية، وفي رأي (أبو القاسم سعد الله) أنّ هذا الجهد لا يكفي لبعث حركة ثقافية تقود المجتمع. وهذا ما يمكننا من استنتاج الأشكال الثقافية التي يدرسها النقد الثقافي عند (أبو القاسم سعد).

3. تاريخ الجزائر العام وتاريخها الثقافي

إنّ المطلع على عنوان الكتاب (تاريخ الجزائر الثقافي) يفهم منه بأنّ تاريخ الجزائر يمكن أن يُقسّم من حيث الدرس إلى تاريخ ثقافي، وسياسي، وعسكري، ودبلوماسي، الخ (سعد الله، أ. (2007). ج10، ص06) فضلا على أنّ هناك تقسيما آخر يعتمد على التحقيق، كما هي طبيعة الكتابة التاريخية، فهناك الجزائر العثمانية، والجزائر في العهد الفرنسي، والجزائر في عهد الاستقلال. وأحسب أنّ هذا التقسيم يخدم أهدافا يقصد إليها المؤلف قصدا، ففي التاريخ الثقافي يركّز على مفهوم الثقافة، وتطوّرها في فترة زمنية تمتد من القرن السادس عشر إلى القرن العشرين. وهذا المبدأ التطوري في دراسة الثقافة يفترض أنّ مفهوم الثقافة يتفاعل مع ما يحدث في المجتمع الجزائري في فترة من الفترات المذكورة، لهذا نجد (أبو القاسم سعد الله) يحدّد المادة الثقافية التي تأخذ مكانها في تاريخ الجزائر الثقافي؛ فيقول: «اختلفت مادة هذا المجلد عن باقي المجلدات السابقة في بعض التفاصيل، فهو مثل سابقه يجمع مفهوم الثقافة في كونها (جزائرية) بقطع النظر عن كون العمل الثقافي أنتجه جزائريون ثائرون على الاستعمار أو عاملون في إدارته ومؤسساته، وسواء كتبوا إنتاجهم بلغتهم الوطنية أو بلغة المستعمر، وسواء كانوا يعيشون داخل الجزائر أو خارجها» (سعد الله، أ. (2007). ج10، ص09) ونلمس في هذا الوصف تحديدا لمفهوم الثقافة الذي نَظّم بواسطته أسس التحليل التي اتّبعتها المؤلف من بداية الكتاب إلى نهايته، ويعيّن أيضا مكونات العمل الثقافي؛ كالتعليم، والسينما، والمسرح والرسم والموسيقى، والمكتبات، والمتاحف والمؤسسات التعليمية. ويمكن أن نضع ضمن تحديد مفهوم الثقافة، ما أسماه بالظواهر الثقافية التي تميز الحقب التاريخية

المدرسة. (سعد الله، أ. (2007). ج 01، ص 20) وغالبا ما يقف المؤلف منها موقف النقد فيبين أثرها في المجتمع سواء كان سلبيا أو إيجابيا (سعد الله، أ. (2007). ج 01، ص 21). وهذا المنهج المطرد في الدراسة يقوم على وصف الظاهرة الثقافية ثم يبين ما تحدثه في المجتمع. ولا يكاد المفهوم يختلف في كل هذا السفر الطويل، فهو ثابت إنما المتغير هو المكونات الثقافية، فهي تختلف من عصر إلى آخر. وواضح أنّ أحداث العصر، وما يرافقها من حركات فكرية، خلق تفاعلا ثقافيا.

وإذا أردنا أن نكتشف نموذجا لتطور الثقافة تاريخيا علينا أن نركز على مؤسسة من المؤسسات التي رآها (أبو القاسم سعد الله) منتجة للثقافة، فالتعليم في الجزائر نهضت به مؤسسة المدرسة، فنجد المؤلف يصفها في العهد العثماني، فيقول: «إن وظيفة المدرسة الابتدائية كانت هامة، فهي تنقف وتربي الأطفال على قواعد الإسلام وعلى نمط اجتماعي محدد، وهي تقوم بتحفيظ القرآن الكريم الذي هو أساس الثقافة الإسلامية. وهي تعلم الأطفال مبادئ العلوم والقراءة والكتابة فيحفظون لسانهم من العجمة ويتوحدون في التفاهم والتخاطب حيثما كانوا، وهي أيضا تساهم في إعطاء الطفل رصيда من المعارف التي تساعد على شق طريقه في المجتمع بعد خروجه منها، عندما يبلغ عادة الرابع عشرة سنة. وإلى جانب ذلك كانت المدرسة الابتدائية تعد شعبا متعلما محصنا لا يوجد فيه إلا عدد قليل من الأميين. حقا إن المدرسة لم ترق بالتعليم ولم تسائر العصر والحاجة الاجتماعية، كما سنرى، ولكنها كانت على كل حال تؤدي وظيفة أساسية في المجتمع، خصوصا رفع الأمية». (سعد الله، أ. (2007). ج 01، ص 279)

ويؤكد المؤرخ أنّ في العهد العثماني قد انتشرت المدارس في القطر بأكمله، ما صير المجتمع متعلما تنعدم في الأمية، وقد تنوعت المدارس منها ما يرتبط بالزاوية، ومنها ما يتصل بالجامع ومنها ما ينفصل عنهما، ومنها ما يحفظ القرآن، ومنها ما يختص بتعليم مذهب من المذاهب الفقهية. واشتهرت مدن باهتمامها الكبير بمؤسسات التعليم كمدينة قسنطينة، وفّس (أبو القاسم سعد الله) بقربها من تونس. وفي هذا تأكيد على دور العامل الجغرافي الذي يسهم في تسهيل استقبال الاشعاع الثقافي من مناراته. واستمرت بعض المدارس التي انشئت في العهد العثماني تؤثر في الحياة

الثقافية حتى في العهد الاستعماري. وكانت بعض المدارس لها مكنتات خاصّة، وفيها مدرسون مشهورون بمهاراتهم التعليمية، كلّ ذلك أثمر أجيالا متعلّمة، وحياة اجتماعية منسجمة بثقافتها الأصيلة التي تُشعرها بالانتماء إلى الأمّة العربية. وكانت المدرسة القرآنية حصن الجزائريين غداة الاحتلال، فقد قاطعوا المدرسة الفرنسية، ولاذوا بالمدرسة القرآنية، لأنّها تعلّم اللّغة العربية، والدين الإسلامي. (سعد الله، أ. (2007). ج03، ص25)

وهذا هو التعليم الذي أنتج ثقافة المقاومة، وهو التعليم الأصلي، وقد حافظ على الشخصية الوطنية الجزائرية، وهو ما لخصه (أبو القاسم سعد الله) بقوله: « وقد كشفت تقارير المفتشين (وهم مستشرقون مرتبطون بالإدارة الاستعمارية) عن صمود المقاومة الثقافية وموقف المتعلمين من توجيهات الإدارة. إنّ عمق الثقافة الوطنية يكمن في دراسة تفاعلاتها مع مخططات الاستعمار الفرنسي، وقد كانت تمثل خطا موازيا للثقافة الفرنسية إلى أن ظهرت الحركة الإصلاحية، فاشتد التنافس بين الثقافتين وساعد ظهور الأحزاب الوطنية على دعم هذه المقاومة. » (سعد الله، أ. (2007). ج03، ص18) وفكرة أنّ عمق الثقافة الوطنية كامنة في قدرتها على التفاعل مع مخططات الاستعمار الفرنسي، تمثّل معيارا في النقد الثقافي استخدمه المؤلف في كتابه، فالثقافة الوطنية الحقيقية هي التي يدرك أصحابها الرهانات التاريخية، ويتعاملون معها وفق ما يملبه تميّزهم الثقافي. وكما أشارنا سابقا إلى الدافع من كتابة (تاريخ الجزائر الثقافي) هو إيجاد الحلول للثقافة الجزائرية الراهنة، وإنّ التعليم في الجزائر لا يمكن أن يستورد من الخارج، فقد تكوّنت عبر التاريخ أسس هذه المدرسة التي بنت ثقافة المجتمع الجزائري، وأرست أسس شخصيته. وهذا من النّقد المضمّن الذي يبيته (أبو القاسم سعد الله) في صفحات كتابه، فكلّما قارنا هذه المعلومات التاريخية حول هذه المؤسسات بمثيلاتها في الوقت الحاضر تكشّفت هذه الحقائق التي يدعو إليها المؤلف.

أثبت (أبو القاسم سعد الله) أنّ تاريخ الجزائر الثقافي هو تاريخ المقاومة الثقافية؛ وقد تعددت أشكالها فمنها التعليم المزدوج بحيث يدرس المتعلم في المدارس الفرنسية اللّغة، وفي المدارس

الحرّة اللّغة العربية، وسمّيت هذه الفترة بالصّحوة الثقافية. (سعد الله، أ. (2007). ج 03، ص 123) ولا تزال هذه الظاهرة مستمرة إلى حدّ اليوم، فالمدرسة الجزائرية هي مدرسة تتصارع فيها اللّغات، فمتى تحسم هذه المسألة، وفي هذه الإشارة الضمنية دعوة إلى قراءة التاريخ الثقافي للجزائر الذي يوفرّ لنا الحلول المناسبة، وهو نقد ثقافي موجه لكلّ من نسي أنّ الجزائر لها شخصيتها الثقافية المميزة لها.

4. بين النقد الثقافي والدراسات الثقافية

يدرس النقد الأدبي النصّ الأدبي من زاوية جمالية وبلاغية بالمقابل يبحث النقد الثقافي في مضمرات الخطاب الأدبي فيستنتج أنساقه، ويتعامل مع النّص الأدبي بوصفه حدثا ثقافيا كغيره من الأحداث الثقافية التي تستأثر باهتمام الدراسات الثقافية، وهو بذلك يجعل النّص الأدبي ذا دلالة نسقية ثقافية (خليل، س. (2012). ص 07)

وبقدر ما تكون مسألة الثقافة عصية على التحديد لاختلاف مفهومها من منظور التطور التاريخي، وأ باختلاف البيئات التي تنشأ فيها الثقافة يمثّل ارتباط النّقد بالثقافة إشكالية تطرح أسئلة ؛ لعلّ أهمها هل يوجد نقد بدون خلفية ثقافية؟ لذا نجد من الدارسين من اتخذ هذا المعطى مطعنا ينتقد من خلاله تسمية النقد الثقافي؛ «فالتسمية أصلا (النقد الثقافي) مضللة ومدعية، ويقوم الجزء الثاني منها بمصادرة الأول والنّقد والنّقاد وكذلك المناهج النّقدية تمارس فعلا ثقافيا، لأنّ النقد أصلا هو فعل ثقافي» (قطوس، ب. (2016). ص 196) ولعلّ ما أضافه (عبد الله محمد الغدامي) إلى وظائف اللّغة الستة التي حدّدها (رومان ياكسون)؛ وظيفة سابعة هي الوظيفة النسقية، كفيلة بالإجابة عن هذا الانتقاد. كما أنّ النقد الثقافي لا يجعل من النّص مركزا لاهتمامه، بل منطلقا ليكشف من خلاله الأنساق الثقافية التي يضمّرها. (الغدامي، ع. (2005). ص 65).

ومن المبادئ الأساسية التي اعتمدها (أبو القاسم سعد الله) في الحكم على الحياة الثقافية بالازدهار، أو التراجع والتخلف؛ ما ورد في قوله: «الحكم على ازدهار الحياة الثقافية في عصر من العصور يقوم على تقدم العلوم والفنون فيه» (سعد الله، أ. (2007). ج 02، ص 401)؛ ويفهم هذا أنّ التطور في العلوم يقاس بمدى ما يحدثه في النّاس من أثر، وما يشيعه من معرفة تسهّل الحياة،

وتساعد على الابتكار والإبداع، فكل علم نافع لا يكتسب هذه الصفة إلا إذا ارتبط بحياة الناس ارتباطا وثيقا بشكل من الأشكال، بحيث يسهم في راحتهم، وفي تطوهم، ويدفعهم إلى التفكير في حل القضايا التي تعترضهم، فإذا انقلبت العلوم إلى تقليد باتت لا تعلم فائدتها في حياة الناس، ولا شك أن ذلك سيؤدي إلى التخلف، والتردي في الحضارة، وعليه تكون الحياة الثقافية رديفا للفعل الحضاري الذي يرقى بحياة الإنسان.

لا شك أن الإشارة إلى اختلاط الأدب بالتاريخ، والتصف، والمدائح حيث طبعت هذه الموضوعات بطابعها، وهي موضوعات لها حضورها اللافت في العصر المدروس، تمثل ذلك نوعا من النقد الثقافي المعتمد على السياق التاريخي. وما يمكن أن نعلل أيضا من النقد الثقافي هو ما وجهه المؤلف إلى أدب هذه الفترة أين ينبّه إلى غياب نتيجة التأثير الأندلسي في الأدب التي افترضه أن يسميه بطريقة أندلسية جزائرية في الأدب. إن النظر إلى أدب هذه الفترة من خلال السياق التاريخي هي التي أدت بالمؤلف كي يتوسع بالنقد الأدبي ليصير نقدا ثقافيا، بحيث استطاع أن يقرأ الأدب في علاقته بالعلوم والفنون في ذلك العصر، ثم يتبصر في العلاقات التي تجمع بينها؛ ففي إجراء المقارنة بين الشاعرين (محمد بن عبد الرحمن الحوضي) و(أحمد بن محمد الخلوف) أرجع توجه شعرهما إلى ثقافة كل منهما، والبيئة، والعصر الذي عاشا فيه؛ « ويبدو أن الخلوف قد تولى مناصب سلطانية كالكتابة. وقد تنقل بين قسنطينة وتونس ومكة والقدس والقاهرة والمغرب. وتلقى علومه في المشرق والمغرب وحج البيت وكانت له موهبة في الشعر والأدب ظهرت مبكرة وجاور بمكة قبل أن يستقر به النوى في تونس حيث توفي. وقد ترك إلى جانب أشعاره كتابا في العروض وآخر في البديع ورجزا في الصرف وعملا في الفرائض. ويتبين من هذه الآثار أن الخلوف كان أكثر اهتماما بالاتجاه الديني من زميله الحوضي الذي غلب عليه، كما لاحظنا، التصوف وبالأخص في أخريات أيامه. ولعل ذلك يعود إلى ثقافة كل منهما وأثر العصر والبيئة في كل منهما. » (سعد الله، أ. (2007). ج 01، ص 82).

اللغة أداة الإبداع الثقافي الأساسية، ولكن الإبداع الثقافي لا يتوقف عند اللغة إنما يستخدم أدوات أخرى يمتلكها الإنسان لها وجودها التاريخي، وقد تكون في فترة تاريخية بنفس أهمية اللغة، ففي حالة الثقافة الجزائرية عبر تاريخها الطويل كانت اللغة العربية أحد المقومات الأساسية للهوية، فدخلت في صراعات مع اللغات الأخرى التي تحاول أزاحتها، واستبدالها، ويمكن اعتبار هذا الفعل من قبيل التدافع، ورؤية عامة تطبّق على حركة الحضارة في التاريخ، إلاّ النظرة التاريخية المقسمة على الحقب التاريخية فإنّ الصراع اللغوي بين اللغة العربية وغيرها من اللغات جعلها تتراجع قليلا، لتفسح المجال لوسائل الإبداع الثقافي الأخرى، فعلى سبيل المثال الأدب الشعبي بلغته الدارجة عن اللغة العربية استوعب هموم الشعب الجزائري، وعبر عن طموحاته، كما نقل خصائص الشخصية الوطنية، فضلا على دقائق الحياة الاجتماعية. (سعد الله، أ. (2007). ج 02، ص 312).

إنّ تداول هذا الأدب جعل الشعب يصوغ تجاربه الفنية مرة إبداعا وأخرى تقليدا، فالشعر الشعبي « وهو كالشعر الفصيح، تناول أغراضا عديدة، ولكنه تناول بالخصوص المدائح النبوية والتوسلات ومدح الفرسان والأبطال، والشكوى من الزمان وأهله أي من الظلم والحرمان، والسياسة ولكن بطريقة ساخرة أحيانا. وفيه يجد الباحث ألوانا من وصف الطبيعة والحب والحكمة والمغامرات والصيد، والمدح والفخر. وقد شاركت كل جهات الوطن في هذا اللون من التعبير. وكان الشعر البدوي صافيا من تأثير الثقافة الفرنسية، ولكن شعر المدن قد تأثر بها، ويظهر ذلك في كثرة الكلمات الأجنبية المعربة. » (سعد الله، أ. (2007). ج 08، ص 307).

ورغم التّصوّر الذي بناه (أبو القاسم سعد الله) الأدب الشعبي بأنّه يمثّل تراجعاً للغة العربية الفصحى، وأنّ المستعمر كان يتهجّجه إلى تكريس هذا اللّور، إلّا أنّ الدراسات الثقافية التي قطبها عن الأدب الشعبي بيّنت في كثير من الحالات أنّه يمثّل مصدرا للأدب الرسمي باعتباره مصدرا للثقافة، فبقدر ما أدت اللغة العربية والأجناس الأدبية التي كتبت بها، من مقاومة للمستعمر الذي يستهدف الشخصية الوطنية، فإنّ الأدب الشعبي احتوى مقاومة أكثر، بل تزعم المقاومة في كثير من حقب التاريخ الجزائري، (سعد الله، أ. (2007). ج 04، ص 144) خاصّة عندما فقد

الشَّعب الجزائري قدرته على فهم اللّغة العربية. وطالما كان الأدب الشعبي مصدرا للإلهام في الآداب العالمية (هيرشكوب، ك. (2005). ج 09، ص 235، 236)، والأدب الجزائري على حدّ سواء.

ولعل الكلمات المفاتيح التي وظّفها هي تصنيف الأدب الجزائري إلى قصصي، ثمّ تحديد المرجعية التي ينتمي إليها، ببيان ما يحتوي عليه من موضوعات، تفرضها الفترة التاريخية التي يعيشها الشعب الجزائري، وبذلك يكون (أبو القاسم سعد) قد استخلص الوظائف الثقافية التي يؤديها الأدب. وما دام أن لا استغناء للمؤرخ على الوثيقة المكتوبة؛ فإنّ الملاحظة الأساسية التي يشير إليها، هي غلبة الأدب الشفوي على الأدب المكتوب من حيث التداول، وهو ما يلمح إلى التحوّل الحاصل على المستوى الثقافي، وهي ما يستنتج من المقارنة بين النّص المكتوب والنّص الشفوي، وأنّ تحويل شفوية الأدب إلى المكتوب تكون ذات أهمية قصوى بالنسبة للمؤرخ، لكنّ شعبية الأدب معتمدة على الشفوية، ورغم أنّ كلّ الشعوب البدائية، وغير البدائية لا يمكنها الاستغناء على الشفوية؛ وإلى جانب الشفوية والكتابة يشير أيضا إلى قضية الفصحى والعامية، وهي قضية داخلية ضمن النّقد الثقافي الذي مارسه (أبو القاسم سعد الله) على الأنساق الثقافية المكونة للثقافة الجزائرية، فعند دراسته لتفسير القرآن الكريم المكتوب والشفوي ذكر أنّ التفسير الشفوي ضاع رغم دوره في المقاومة. (سعد الله، أ. (2007). ج 07، ص 10) ويمكن أن نستنتج أنّ التأليف في التفسير يعود إلى قوّة الثقافة، وبالمقابل فإنّ تداول التفسير الشفوي، والاكتفاء به يعود إلى ضعف الثقافة، والضعف الثقافي هو نتيجة مباشرة لما تمارسه السلطة الاستعمارية، وهذا النّقد الثقافي المرتبط بالشفوية وثيق الصلة بالوثيقة التاريخية من جهة، ووظيفة المؤسسات الثقافية في قدرتها على الانتاج الثقافي.

ورغم هذا التفاوت بين اللّغة الفصحى واللّغة العامية التي اشتقت منها، مع احتوائها لمفردات من لغات أخرى، إلّا صفة الأدبية في رأي (أبو القاسم سعد) ما تزال صفة لازمة لهذه النصوص، والدليل على ذلك الاعتراف بأن هذه القصص محوّل على الأدب الشفوي، وهذا يعدّ

مدا للصلة بين العامي والفصيح. ويعين أبو القاسم من الناحية التاريخية الوظائف التي اضطلع بها الأدب الشعبي، فقد كان للترفيه الاجتماعي؛ وهذا مرتبط بالفترة التاريخية وما تتطلبه الحالة السياسية حيث يمكننا أن نستخلص ذلك من متابعة الاستشهادات التي يوردها المؤلف؛ خاصة مضمون الحكايات. إنَّ المقارنة بين العامية، والفصحى أفضت إلى المقارنة بين الشفوي والمكتوب، ثمَّ أدت إلى ربط العلاقة بين الأدب الرسمي، والأدب الشعبي، غير أنَّ ما نلاحظه أنَّ (أبو القاسم سعد الله) كان مستنده الأساسي في وصف الواقع الثقافي الذي عاشه الشعب الجزائري، هو الأدب الرسمي المتمثل في الأدب العربي، وذلك سبب شعوره بالانتماء الذي يستوعب البعد الثقافي الجزائر، فتاريخ الجزائر الثقافي هو امتداد للتاريخ الثقافي للأمة العربية، فلم يكن المؤرخ أن يخرج عن هذا الفلك إلاَّ عندما يقارب خصوصية الثقافية الجزائرية التي تمثل ترسيخا للهوية الوطنية التي يكرسها التاريخ الثقافي الخاص بالجزائر والجغرافيا التي تميز الوطن.

ومن الأمثلة نسوقها على ما ذكرناه ما كتبه (أبو القاسم سعد الله) في مقدمة الجزء الثالث من (تاريخ الجزائر الثقافي): «وقد حرصنا على أن يضم الكتاب الروافد المختلفة للثقافة. فقد تناولنا أيضا الأدب الشعبي بأنواعه ولهجاته. ورجعنا إلى إنتاج اللهجات العربية والبربرية. وقد لاحظنا أنه أدب يعبر عن مختلف أحزان وآمال الشعب الجزائري أمام جبروت الاحتلال. فكانت موضوعاته هي البكائيات والحب والفخر والإصرار على الأمل والتفاؤل رغم المأساة...» ولكن الكتاب يظل في صميمه يمثل الثقافة (الوطنية) المشتركة بين الجزائريين مهما تباعدت أجيالهم واختلفت لهجاتهم وتعددت اللغات الأجنبية التي يستفيدون منها، وهي الثقافة العربية التي انتشرت بالإسلام». (سعد الله، أ. (2007). ج. 03، ص. 07)، ونستنتج من هذا القول أنَّ الثقافة التي درسها هي ثقافة متعدّدة الروافد، لكن القاسم المشترك هو الصبغة الوطنية. وقد وصف معنى الثقافة التي تجمع كلّ الجزائريين بقوله: «إن الجزائر قبل سنة 1830 كانت، مثل كل البلاد العربية والإسلامية، تعاني من مرض التخلف والجهل، ومن مرض الجمود الفكري الذي اتفق الحكام والعلماء عندئذ على

تأبيده. ولكن التخلف والجهل والجمود لا يناقض وحدة التفكير والشعور؛ فكان الناس يعيشون أنماطا من العيش يحذوهم فيها فكر واحد، ويتبادلون مشاعر مشتركة، وكانوا يسعدون ويجزنون في حياتهم حسب مقاييس ثقافية وضعوها لأنفسهم يباركها اللسان الواحد والدين الواحد والانتماء الواحد. وذلك هو معنى (الجزارة) عندئذ، وهو معنى الثقافة الأصلية المشتركة بينهم وبين المغاربة والمشاركة. ويظهر ذلك في توجه الآلاف منهم نحو المغرب والمشرق عندما ادلهم الخطب وغزا العدو بلادهم ونكبوا في دينهم وأموالهم وأهليهم.» (سعد الله، أ. (2007). ج 03، ص 08).

تأسست الدراسات الثقافية من مجموعة من النظريات. من مهامها دراسة تشكّل الثقافة في المجتمعات، واستكشافها في حالة تكوّنها في الممارسات البشرية في سياقات تحدّد وظيفتها، كما تنظر كذلك في المؤسسات التي تنتج الثقافة، على اختلاف آثارها في المجتمع، وتسعى إلى دراسة طرق حول الثقافة والسلطة التي يمكن الاستفادة منها لإحداث التغيير في المجتمع. (Barke, C. p42,43. (2004)). ومن هذه الزاوية نجد (أبو القاسم سعد الله) قد استغل الوثائق التي تمكّن من الاطلاع عليها، وكعادته يصف هذه لمبادر وصفا دقيقا، ثمّ يعلّق عليها ليكشف بالتحليل قيمتها، وفي تعامل المستشرقين الفرنسيين مع المخطوطات في مدن الجزائر يذكر أن هؤلاء نهبوا المخطوطات الثمينة واستولوا عليها، وبذلك لم يسلب المستعمر الأرض، وإنما سلب الثقافة الجزائرية التي تعدّ مقوما هاما من مقومات الهوية الوطنية، لما تؤدّيه من وظائف كثيرة في المجتمع لعل أهمها وظيفة التعليم. وبإمعان النظر في موقف المؤلف من هذا الفعل الاستعماري يمكّننا من معرفة الفرق بين النّقد الثقافي الذي يسخره من أجل إبراز دور القيم الثقافية التي تخدم الثقافة الجزائرية، والدراسات الثقافية التي سخرها المستشرقون وغيرهم من المستعمرين من أجل معرفة المجتمع الجزائري، وثقافته، وميادين هذه الثقافة ثمّ تسخر هذه الدراسات من أجل السيطرة عليه، وحرمانه من الفئة التي تملك القدرة على النهوض بالمجتمع بإكسابه الوعي بهويته. معنى هذا أنّ الدراسات الثقافية على اختلاف مناهجها سخرت من أجل التوسع الاستعماري ألّا النّقد الثقافي فقد اتّجه به المؤلف إلى إيضاح مقومات الثقافة الوطنية.

إنّ تفسير الثقافة بعلاقتها بالحالة الاجتماعية من القضايا التي عمد (أبو القاسم سعد الله) إلى بسطتها، فالموسيقى عند الجزائريين كانت تعزف من الذاكرة، بمعنى لا تكتب كما هو واقع اليوم؛ وهذه الملاحظة نتيجتان؛ الأولى اعتماد الجزائريين في تعلمهم الموسيقى على السماع الذي يستدعي حضور المتعلم، لأنّ الكتابة رغم فوائدها فهي في مثل هذه الفنون تمثّل حاجزا فاصلا بين الموسيقى في أصلها الأول، وهذا سيؤثر ايجابا على انتقالها بحيث تحافظ على أصالتها ونقاوتها كما كانت في شكلها الأول، وأنّ الإبداع فيها بتطورها يحتاج إلى فترة زمنية ليست بالقصيرة، أمّا النتيجة الثانية فهي مقارنتها بكتابة الموسيقى عند الشعوب في العصر الحاضر، وأنّ الموسيقى يمكنها أن تتحوّل إلى علم يدرس، كما يمكن المحافظة عليها من الزوال، عكس الموسيقى التي تنتقل عن الطريق السماع في شكل سلسلة من الموسيقيين والمطربين، فإذا انقطعت السلسلة اندثر الإرث الموسيقي .

وللبينة أثرها في اختيار أنواع الموسيقى، ومعها أنواع الآلات: «ويستعمل عازفو البدو أيضا آلات موسيقية تناسب عقليتهم ووسائلهم المعيشية. وهم أيضا لا يكتبون موسيقاهم، وآلاتهم هي الربابة ذات الوتر الواحد والقصة، وكذلك الطار أو البندار، ولا تختلف أنغامهم كثيرا بل هي متواصلة بالقصة ورتيبة، أما الربابة فهي التي تبدأ بها النغمة وتنتهي، ويشارك في هذه الطريقة من العزف المداحون وبعض الدراويش أيضا، وكان هؤلاء وأمثالهم يجتمعون في حلقة في مكان قريب من السوق ونحوه ثم يشرعون في الغناء والعزف على الآلات المذكورة، ومعظم إنشادهم خلال ذلك يعتمد على المدائح النبوية وسيرة الصحابة والسلف والقصص العربي البطولي. أما العزف على الطار أو البندار المتكون من جلد ناعم وخشب رقيق فيستعملونه في الحفلات العامة، وهو بالإضافة إلى القصة والربابة، يعطي أنغاما لطيفة ناعمة أحيانا وعالية أحيانا أخرى، حسب المناسبة» (سعد الله، أ. (2007). ج 02، ص 443).

والملاحظ في هذا الوصف هو الربط بين نوع الآلة الموسيقية والموضوع الذي يشرع فيه المدح أو الغناء، فهذا نقد ثقافي يستهدف الإبداع الموسيقي لدى الجزائريين، وتطويع الفنون

الجميلة للتعبير عن الحالات النفسية المرافقة لها، ومن خلال هذا التحليل يمكن أن نستخلص تحديد (أبي القاسم سعد الله) الثقافة، وطبيعتها في كل عصر، ومكوناتها، ومصادرها، وما أحدث فيها من تطوير وتغيير.

فعلى سبيل المثال يرى أنّ الموسيقى والرقص، رغم شيوعهما في المجتمع الجزائري، وأدائهما لوظيفتهما إلا أنّ التأليف فيهما منعدم، وذلك راجع لانتقادات المجتمع لمتعاطيتهما؛ «ورغم ما قلناه عن الموسيقى بأنواعها وعن الغناء والرقص فإننا لا نجد أحدا من العلماء خلال العهد المدرّس قد تناولها ببحث أو تأليف. ولعل النقد الاجتماعي لمتعاطي هذه الفنون في ذلك العهد هو الذي منع الباحثين من التأليف فيها.» (سعد الله، أ. (2007). ج 02، ص 445) ونجد ما يديه الكاتب من ملاحظات تفسّر طبيعة الفنون، وتوظيفها في حياة الناس بحيث تتحوّل إلى ثقافة تعبّر عن سلوكهم، فهو يقول في طريقة البناء والعمارة: «وكانت البيئة وراء طريقة العمارة في الجزائر. فالحرارة والبرودة من جهة، وعدم ظهور المرأة هي التي أملت كثيرا من أساليب بناء المنازل، والمساجد، والزوايا» (سعد الله، أ. (2007). ج 02، ص 446) وعلى هذا فإنّ خصائص البناء تدلّ على قيم ثقافية معينة، يتصف بها المجتمع الجزائري.

من مظاهر الثقافة الجزائرية عبر العصور فن الخط، وقد وصف (أبو القاسم سعد الله) تطوّره واستخدامه ووظيفته الاجتماعية والدينية والثقافية في الفترات الزمنية التي درسها، فمثلا في العهد التركي يصف الكتابة والخط فيقول: «وكان التفنن في الخط والكتابة من وسائل التعبير الجمالي في هذا العهد. ففي الوقت الذي غاب فيه التصوير لعب الخط دورا بارزا في إظهار المواهب الفنية المحلية، وقد تحدثنا في فصل سابق عن براعة الخطاطين والنساخين وانتشار مهنتهم وتقديرها بين الناس. ونضيف هنا فقط أن الكتابة المنحوتة أو المنقوشة على جدران المساجد وأبوابها ومحاريبها، وكذلك القصور ونحوها من المنشآت، كانت تجمع بين فن الخط والتصوير والنحت التي تشيع اليوم، ومع ذلك فلا نجد تأليفا خاصا بهذا الفن من علماء الجزائر خلال العهد المدرّس.» (سعد الله، أ. (2007). ج 02، ص 448) ولا شك أنّ الخط يمثّل قيمة جمالية، غير أنّ له وظيفة أساسية في الحياة

الثقافية والعلمية، منها استنساخ الكتب، فقد اشترط في من يقوم بهذه المهمة جودة الخط، وقدرًا هامًا من إجادة العلم الذي يستنسخ كتبه.

إلى جانب ذكر بعض الأماكن التي يستعمل فيها الخطّاطون فنون الكتابة، كالمساجد، بيوت أصحاب السلطة، والمكتبات العامّة، بيّن (أبو القاسم سعد الله) نوع الخط الغالب، والمستخدم عند الجزائريين، فهو يذكر أنّ «وكان النسخ يتم بالخط الأندلسي الذي قال عنه ابن خلدون إنه قد تغلب على الخطوط الأخرى في المغرب العربي، وهو المعروف اليوم بالخط المغربي. وبالإضافة إلى ذلك جاء مع العثمانيين الخط المعروف (بالعثماني)». (سعد الله، أ. (2007). ج 01، ص 290)

وفن الخط مرتبط بالأساس باستنساخ الكتب التي تمثّل وسيلة التعليم والتثقيف والتأريخ، وغيرها من الوظائف الأساسية، ذكر (أبو القاسم سعد الله) أنّ الكتاب المنسوخ في العهد العثماني كانت تتوفر له سوق يباع فيها، وأنّ شراء الكتاب لم يقتصر على الأغنياء فقط، بل كان الفقراء يتناعون الكتاب؛ «وكان الشراء من أهم طرق الحصول على الكتب. ولم يكن ذلك مقصوراً على الأغنياء والأمرء ونحوهم بل كان يشمل حتى فقراء العلماء الذين كانوا يؤثرون الكتاب على ملء المعدة واللباس الفاخر والفرش الوثير». (سعد الله، أ. (2007). ج 01، ص 290)

المستند في تحديد هذا الفعل الثقافي القائم على شراء الكتب من عمّامة النّاس هو الوثائق والأخبار المتوفرة لدى المؤرخ؛ وما يمكن أن نستخلصه هو انتشار القراءة والكتابة في العهد بين أوساط عمّامة النّاس، وأنّ المجتمع الجزائري كان يملك المعارف الأساسية التي تمكّنه من خلق التحضر والتمدن، ومن ثمّة الإسهام في الحضارة، وأنّ الفعل الثقافي غالباً ما يبنى على الدافع الذاتي للفرد، وقد يستنتج منه أيضاً السياسات التعليمية التي اتبعتها السلطات وقتذاك، كما يمكن أن نرى ما للتعليم من دور هامّ في تثقيف النّاس، هذا عندما ننظر في فعل شراء الكتاب من عمّامة النّاس، مع تفضيله على الحاجة الأخرى التي يمكن أن تكون أساسية، أمّا إذا نظرنا في الفعل بنوع من الخصوصية فبالإمكان التساؤل عن نوع الكتاب الذي كان النّاس يطلبوه، وما الأسباب الكامنة وراءه.

وبعد بيان تفاني العلماء غنيهم وفقيرهم في اقتناء الكتب، وإقامة المكتبات الخاصة، والعمومية، انتقد (أبو القاسم سعد الله) سلطة ذلك العهد في إهمالها إنشاء المكتبات العامة، ورد ذلك إلى جهلهم بلغة البلاد وأدبها؛ «ولا نعرف من تاريخ الجزائر الطويل أيام العثمانيين أن ولائها كانوا يشترون الكتب أو يستنسخونها لإقامة مكتبات خاصة بهم (باستثناء الباي محمد الكبير) كما كان يفعل أمراء المسلمين في الماضي. ونحن لا نستغرب ذلك من ولاية لا يعرفون لغة البلاد ولا يتذوقون أدبها وفنها، بل كانوا في أغلبهم جهلة لا يعرفون حتى القراءة والكتابة» (سعد الله، أ. (2007). ج 01، ص 293)

يتخذ (أبو القاسم سعد الله) من حركة الكتاب نسخا وبيعا وشراء وتأليفا، وتجميعا في مكتبات، دليلا على الحركة العلمية التي تتسبب في حيوية الثقافة في الأوساط العامة من المجتمع الجزائري في عهد الحكم التركي، ويوضح تبادل الكتاب سواء بالنسخ أو الشراء أو الهدية، وعبر مواسم الحج والرحلات الأخرى، وكيف أخذ الكتاب اهتمام العلماء، وأن الكتاب غدا علامة تدل على المكانة في المجتمع، وأن الكتاب يمكن أن يكون وقفا في مكتبة المسجد أو الزاوية، وقد مثلت حركة الكتاب داعما أساسية في التواصل الثقافي بين الجزائر والأقطار المجاورة لها. وكان هذا الاتصال بطرائق كثير؛ شحذت همم العلماء للتأليف، ولعل من أهمها الرحلة، وقد ذكر (أبو القاسم سعد الله) أن «مصر والحجاز وسورية والعراق وإسطنبول أوحى إلى عيسى الثعالبي وأحمد المقرئ ويحيى الشاوي بالتأليف. ولولا الرحلة في طلب العلم والحج لما نشطت هم هؤلاء العلماء للتأليف وتغذية المكتبات بإنتاجهم». (سعد الله، أ. (2007). ج 01، ص 296)

كل هذه المصادر للكتاب أدت إلى تأسيس المكتبات التي أسهمت في تثقيف الشعب الجزائري، ويرى (أبو القاسم سعد الله) أن المكتبات في الجزائر العثمانية، كانت ملحقة بالزوايا والمساجد والمدارس، وأن المكتبات العامة لم يتوفر عليها هذا العهد. (سعد الله، أ. (2007). ج 01، ص 296) ولعل في هذه الملاحظة إشارة إلى ارتباط الكتاب بمؤسسة دينية، وأن مضمونه يغلب عليه الطابع الديني، في غير منع للموضوعات الأخرى، ويمكن أن نستنتج أيضا أن انتشار الكتاب لم يكن ليغطي كافة أفراد الشعب، وإن سبقت الإشارة إلى إقبال أفراد الشعب الجزائري على شراء الكتاب من الأسواق الخاصة به.

انصب اهتمام المستشرقين على اللغة العربية الفصحى، والدارجة، والفقهاء الإسلاميين، (سعد الله، أ. (2007). ج 06، ص 32) وهي سمة خاصة لديهم حيث كانوا يتقنون اللغات الشرقية، ولا يكتفون باللغات

الرسمية بل يستوعبون اللغات الدارجة، ويؤلفون فيها المعاجم والدراسات، وذلك من أجل المعرفة الدقيقة بالعادات والتقاليد التي تحتاج للتعامل والمعايشة في المجتمع الجزائري، ولعل اللغات الدارجة هي أكثر حمولة للثقافة الشعبية، (سعد الله، أ. (2007). ج 06، ص 33) وقد ترجم المستشرقون الفقه الإباضي، والفقه المالكي، وسعوا إلى تحويل المعاملات الشرعية الجارية بين أفراد المجتمع الجزائري إلى القانون الوضعي الفرنسي، بطرق كثيرة؛ ثم انتقلوا بعد ذلك إلى دراسة الآثار، والتاريخ، كلّ ذلك من أجل الدخول في صراع مع الشعب الجزائري المهزوم عسكريا، والذي ما زالت مقاومته الثقافية قائمة تصارع، كلّ هذا يوضح أنّ تغيير مجتمع بكّل مقوماته الثقافية يحتاج إلى جهد علمي يتّوَّع على سنوات طويلة، وأن هذا التغيير لن يكون مثمرا إلاّ كان الجهد فيه مركزا على اللغة والفقه، والعادات والتقاليد، ثمّ يأتي بعد ذلك العوامل الأخرى، كالاقتصاد.

ورغم أنّ الاستشراق الفرنسي لا يحتاج إلى تمحيص لمعرفة ارتباطه بالمستعمر، فهو يرتبط سياسيا بالإدارة الاستعمارية ويطبق خططها، وقد كان هؤلاء المستشرقون « مدعومين من قبل لجنة (إفريقيا الفرنسية) التي كان مقرها باريس، ومن قبل زعماء الكولون أمثال (يوجين إيتيان) ومن الجامعات الفرنسية، ومن اللوبي الاستعماري عموما »، (سعد الله، أ. (2007). ج 06، ص 14) ؛ إلاّ أنّ ما جمعه من معطيات علمية ميدانية لا تقدر بثمن بالنسبة للدارسين الذين يسعون إلى معرفة الحياة الثقافية التي كان الشعب الجزائري يمارسها في تلك الفترة، لذلك حكم (أبو القاسم سعد الله) على هذه المدرسة بأنّها مدرسة فكرية امتد تأثيرها إلى الأدب والفنّ واللغة والتاريخ والعلاقات بين الجزائريين والفرنسيين. ومن المستشرقين من يعلنها صراحة بأنّ الثقافة الحقيقية هي التي تكون في خدمة المستعمر: « ويبدو أن (ماسكري) كان من الممهدين لاحتلال ميزاب بعد زيارتها. ذلك أن مترجميه يقولون إنّّه قام سنة 1882 (عهد لويس تيرمان) بزيارة هذه المنطقة تمهيدا لاحتلالها. وجاء منها بمؤلفات، وترجم بعضها. ويقولون عنه إنّهُ خدم الجزائر (الفرنسية) بكلّ قواه، في تعليمه وفي كتاباته. وقد بين أن الثقافة الحقيقية لها دور تلعبه في خدمة الدولة المستعمرة، وهو دور عظيم في بلاد مثل الجزائر عندئذ. ويقول (أوغسطين بيرنار)

الذي توسع في ترجمة ماسكري: إنه بعد أن ملكت فرنسا الجزائر بالسيف والمحراث (وهو تعبير استعمله بوجو)، يجب أن يأتي الامتلاك الآخر، الامتلاك بالقلم والكلمة، وهو دور ماسكري ودور المجلة الإفريقية (...) وقد كان بيرنار صادقا في ذلك، ويصدق وصفه أيضا على كل مستشرق فرنسي». (سعد الله، أ. (2007). ج06، ص36)

وأحسب أنّ هدف الاستعماري الذي كان يحذو المستشرقين في دراساتهم الثقافية للمجتمع الجزائري هو الذي يبيّن الفرق بينهما وبين النقد الثقافي الذي غالبا ما يكون محايدا، وذلك تحت تأثير الدافع العلمي المحض. وهذه الحركة التي نشأت في مواجهة الاستشراق قد أثارت جدلا حول مؤسسة الاستشراق في الغرب. (خليل، س. (2016)، ص27). ويمكن أن نأخذ هذه الملاحظات التي أبدتها (أبو القاسم سعد الله) حول ما أجراه المستشرقون الفرنسيون من دراسات ثقافية عن حياة الشعب الجزائري من قبيل لفت الانتباه الغرب حتى يراجع مؤسسة الاستشراق التي ما زالت تمارس هذه المركزية الأوروبية في دراسة الثقافات.

الخاتمة

وفي الأخير يمكننا أن نخلص إلى النتائج الآتية:

- موسوعة (تاريخ الجزائر الثقافي) تسع معارف واسعة حول الثقافة الجزائرية، بنيت على مفهوم الثقافة العربية الإسلامية ذات الطابع الجزائري؛ وجزائرية الثقافة لها ارتباط وثيق بالهوية القومية والوطنية، ما يؤكد بأنّ الثقافة بنية تحفظ الهوية، وهو دور أدته اللّغة عموما، والأدب الجزائري خاصّة، وهو ما سمّاها المؤلف بالروافد الثقافية المختلفة.

- استطاع أبو القاسم سعد الله أن يرفع تحدي جمع الوثائق التي تخصّ الثقافة الجزائرية عبر أكثر من أربعة قرون ونصف، وقد وثّق للثقافة الجزائرية بطريقة المؤرخ المحترف؛ فالبعد التاريخي للثقافة تأكيد لأحد أهم الأدوار التي تضطلع بها الدراسات الثقافية، وإنّجّه تركيزها إلى راهن الثقافة، زيادة على هذا يلعب التأليف المبني على المنهج التاريخي دور الحفاظ على الثقافة التي يُستند عليها في تصوّر مشروع المجتمع الجزائري بكلّ خصوصياته، ما يجعله متجانسا مع ذاته التي تميّزّه عن الآخر.

- يمثل كتاب (تاريخ الجزائر الثقافي) مصدرا ملهما للدراسات الثقافية؛ لما يحتويه من توثيق لمصادر التراث الجزائري، ومن إشارات إلى الدراسات الثقافية التي أجرتها الحركة الاستشراقية الفرنسية.

- ويحتوي هذا الكتاب مادة هائلة يمكن أن يؤسس في ضوئها النقد الثقافي من منظور تاريخي، باعتباره يجمع أصول التراث الثقافي الجزائري، سواء المادي منه أو اللامادي.

- يحتوي هذا الكتاب نواة تاريخ الأدب الجزائري لمدة تزيد عن سبعة قرون، فقد أّخ (أبو القاسم سعد الله) لأهم محطّاته، وحدّد عصوره، وحقبه بدقّة، وما على مؤرخ الأدب الجزائري إلّا جمع مواد الأدب الجزائري من مظانه ثمّ اتّباع النّظام الذي استنتجه المؤرخ (أبو القاسم سعد الله) بخبراته في قراءة الوثيقة التاريخية.

الإحالات والمراجع:

- سعد الله، أ. (2007). تاريخ الجزائر الثقافي (ط. 1). الجزائر: دار البصائر للنشر والتوزيع.
- أمين، س. (1989). نحو نظرية للثقافة نقد التمركز الأوروبي والتمركز الأوروبي المعكوس (ط. 1). السعودية: معهد الإنماء العربي.
- بعلي، ح. (2007). مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن (ط. 1). الجزائر: منشورات الاختلاف.
- قطوس، ب. (2016). دليل النظرية النقدية المعاصرة مناهج وتيارات. سوريا: فضاءات للنشر والتوزيع.
- خليل، س. (2012). النقد الثقافي من النص الأدبي إلى الخطاب. لبنان: دار الجوهري.
- خليل، س. (2016). دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي. لبنان: دار الكتب العلمية.
- هيرشكوب، ك. (2005). ميخائيل باختين: الصيرورة التاريخية في اللغة والأدب والثقافة (ط. 1). مصر: المجلس الأعلى للثقافة.
- ويدن، ك. (2005). موسوعة كمبريدج في النقد الأدبي: الدراسات الثقافية (ط. 1). مصر: المجلس الأعلى للثقافة.
- الغدامي، ع. (2005). النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية (ط. 3). المغرب: المركز الثقافي العربي.
- الرويلي، م. و البازعي، س. (2002). دليل النّاقّد الأدبي (ط. 3). المغرب: المركز الثقافي العربي.
- وايلز، ك. (2014). معجم الأسلوبيات (ط 1). لبنان: المنظمة العربية للترجمة.
- Barker, C. (2004). London, The SAGE Dictionary of Cultural Studies, SAGE Publications
- PAYNE, M., & BARBERA, J. R. (2010). A Dictionary of Cultural and Critical Theory. United Kingdom: Blackwell Publishing.
- Storey, J. (2018). Cultural theory and popular culture: An introduction. London: Routledge.